لا يعار
٨٢٣٢٣٦
إهداء من مؤسسة آل البيت لتراث الإسلامي بالقاهرة تحت رقم ٧٩/١٢/٢١

١٥ ذي الحجة ١٤٢١ هـ

الدكتور هاشم يحيى الملاح
عميد كلية الآداب

أساليب تداول السلطة في الدولة العربية الإسلامية

* **تمهيد :**

ان وجود قواعد محددة تتولى تنظيم تداول السلطة السياسية بين الحكام بصورة سليمة يعتبر من خير السبل التي تضمن الهدوء والاستقرار في الدولة .لذا فقد حرصت شتى الدول منذ بداية ظهورها وحتى الوقت الحاضر على تعيين القواعد التي تنظم تداول السلطة بين حكامها . وقد اختلفت هذه القواعد من دولة إلى أخرى تبعاً لطبيعة الفلسفة والنظام الذي كان يسود في كل منها . الا أنه يمكننا تمييز ثلاثة أنماط رئيسية من أساليب تداول السلطة في مختلف الدول وهي : —

١. الوراثة : وهي تقضي بإنتقال السلطة من الحاكم إلى ورثته من بعده ، قياساً على انتقال المال من الميت إلى ورثته . ويشيع هذا الاسلوب في انتقال السلطة في الأنظمة الملكية .

٢. التعيين : وذلك بأن يختار الحاكم في حياته من يخلفه في منصبه بعد مماته بغض النظر عن صلة القرابة التي تربطه بذلك الشخص .

٣. الانتخاب في ظل هذا الاسلوب ،يترك للشعب .أولطبقة من طبقاته ، أوفئة من فئاته ، أن ينتخبوا من يتولى حكمهم ، اما بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر ، وغالباً لفترة محدودة من الزمن كما هو شائع في ظل الانظمة الديمقراطية (١) .

ويلاحظ أن تداول السلطة في الدولة العربية الاسلامية لم يخرج عن هذه الأساليب الثلاثة بصورة اساسية كما سيتضح من دراسة تطور الحياة السياسية العربية في الجاهلية والاسلام والتي سنقدم لها بنبذة مختصرة عن تداول السلطة في القبيلة العربية لانها تشكل الخلفية التاريخية للدولة العربية الاسلامية .ثم نوضح كيف نشأت هذه الدولة على يد الرسول محمد لننتقل بعد ذلك إلى مناقشة الاساليب التي انتقلت فيها السلطة الى الخلفاء الراشدين بشكل منفصل ،وذلك لانها اتخذت بمثابة السوابق القانونية التي استندت اليها العصور التالية في رسم تصوراتها المثالية عن الدولة الاسلامية .كما سنعرض للكيفية التي عهد فيها معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد بمنصب الخلافة لانها شكلت سابقة سياسية استند اليها الخلفاء من بعده لجعل الخلافة منصباً وراثياً وحتى نهاية الدولة العثمانية .

ويلاحظ أن العديد من الكتاب القدامى والمعاصرين قد كتبوا عن الخلافة ومايتفرع عنها من مباحث ؛ ولكن لم يكرس أحد منهم — على مايبدو — جهده لمعالجة موضوع

---

(١)غالي ،بطرس ،مبادئ العلوم السياسية ،مصر ١٩٦٢، ص ٣٧٣ — ٣٧٥ ،الجرف طعيمة، نظرية الدولة ,القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٣٥١ — ٣٥٩ .

تداول السلطة بشكل مستقل . وباسلوب نقدي مقارن على ضوء ماهو مقرر في القانون الدستوري والعلوم السياسية ، مما يفسح المجال لهذا البحث أن يلقي مزيداً من الأضواء على هذا الجانب الخطير من حياة الدولة العربية الاسلامية :

* تداول السلطة في القبيلة :

لقد كان العرب يشترطون في من يتولى رئاسة القبيلة ، اضافة إلى شرط النسب الرفيع ، أن يتحلى ببعض الصفات الاخلاقية العالية : كالحكمة والشجاعة والكرم . فان توفرت هذه الشروط في ابن شيخ القبيلة ، اختير لتولي الرئاسة بعد أبيه . وان لم تتوفر انتخبوا من تتوفر فيه هذه الاوصاف أو أعلى نسبة منها من بين أفراد القبيلة وبذلك يكونون قد تبنوا طريقة الانتخاب من بين سائر الطرق (٢) .

ويرى الدكتور العلي : ان العرب لم تكن تفضل أن يخلف الأبن أباه لما قد يجره ذلك من تقرير مبدأ الوراثة في الرئاسة وما قد يؤديه من تقييد حرية البدوي . وليس في تاريخ العرب قبل الاسلام أكثر من أربع أسر تتابع فيها أربعة أحفاد بالتعاقب على الرئاسة »(٣). ويعلق المستشرق مونتغمري وات على تفضيل العرب للانتخاب في تداول السلطة بقوله: «وهكذا يكون العرب باعترافهم بالفضائل الاخلاقية ،وقدرتهم على تمييز هذه الفضائل قد حققوا نوعاً من المزج بين الارستقراطية والمساواة ،فاعترفوا بحكم الافضل ،مع تأكيد المساواة بين جميع الناس » (٤) .

* السلطة في عهد الرسول :

وحينما ظهرت الدعوة الاسلامية في مكة (٦١٠ م) وانطلق الرسول يدعو الناس إلى الايمان بوحدانية الله والتسليم بانه رسول الله اليهم ، وان عليهم تبعاً لذلك أن يسمعوا له ويطيعوا عملاً بأوامر الله المتمثلة في كلمات القرآن : « واطيعوا الله ورسوله » (٥) ، «من يطع

---

(٢) العلي .صالح أحمد .محاضرات في تاريخ العرب . بغداد ١٩٥٥ .ص ١٣٦ .

(٣) المرجع نفسه .ص ١٣٦ .

(٤) وات .مونتغمري .محمد في مكة «تعريب شعبان بركات » بيروت بلا تاريخ .ص ٥٠

(٥) سورة آل عمران : ١٣٢ .

الرسول فقد أطاع الله»(٦) .ادرك الذين آمنوا به أن من مستلزمات ايمانهم أن يسلموا قيادهم له ويخضعوا لاوامره في شتى المجالات .وقد عمق القرآن هذا الادراك بسرده لقصص بعض الانبياء السابقين الذين كانوا قادة وملوكاً لشعوبهم مثل موسى وداؤد وسليمان حيث حكموا شعوبهم حكماً مثالياً طبقاً لاوامر الله بعكس الحكام الفاسدين الذين خرجوا على أوامر ربهم وحكموا شعوبهم بناء على أهوائهم ورغباتهم فضلوا وأضلوا قومهم.وقد مثل القرآن لهذا النوع من الحكام بفرعون الذي عصى نبي الله موسى واضطهده (٧) .

إن هذه العقيدة التي تربط الخضوع السياسي باليقين الديني قد ساعدت الرسول كثيراً على تأسيس الدولة الاسلامية في المدينة وتولى الرئاسة فيها بعد أن قبل زعماء الأوس والخزرج الدعوة الاسلامية واتفقوا مع الرسول على الهجرة من مكة إلى المدينة مع أتباعه المكيين في بيعة العقبة الثانية في سنة ٦٢٢ م .

لقد خضع المؤمنون من الاوس والخزرج لزعامة الرسول بحكم إيمانهم الديني وخضع له سياسياً بنية أفراد الاوس والخزرج من غير المؤمنين تضامناً مع قومهم ورؤسائهم كما تقضي بذلك التقاليد القبلية . أما اليهود فقد احترموا زعامة الرسول ولم يعلنوا المعارضة ضدها مراعاة لقواعد التحالف التي تربطهم بالاوس والخزرج اضافة إلى أنهم لم يروا في زعامة الرسول خطراً يهدد وجودهم الاقتصادي والسياسي والديني في البداية .بل ربما ظنوا أن زعامة الرسول ستفيد في تحقيق الأمن والاستقرار في المدينة (٨) .

وهكذا نجح الرسول في تسلم رئاسة الدولة الناشئة .وراح القرآن يحث الناس على الالتزام بطاعة الرسول وعرض مشاكلهم وخلافاتهم عليه لحلها في العديد من الآيات. نحو قوله :« فأن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر »(٩) .«فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » (١٠) « وان أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وأن كثيراً من الناس لفاسقون ،افحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » (١١)

---

(٦) سورة النساء . ٨٠

(٧) سورة القصص : ٣٠ — ٤٠ .سورة ص: ١ — ٤٠ . سورة الأنعام : ١٠ — ١١

(٨) راجع مقالنا : نشأة دولة المدينة في يثرب — مجلة الجامعة .الموصل .١ آذار ١٩٧٢ ص٥٥ — ٦٠

(٩) سورة النساء : ٥٩

(١٠) سورة النساء : ٦٥

(١١) سورة المائدة : ٤٩ — ٥٠

يستنتج مما تقدم آنفاً أن الرسول قد استند في تأسيس سلطاته السياسية على اختيار الله له باعتباره رسول الله اليهم. ولكن قيمة هذا المستند كانت ستبقى نظرية بحتة لولا نجاحه في اقناع الناس بالايمان بدعوته ، إذ بدون ذلك لايمكن أن تنشأ جماعة ولادولة ولا سلطة سياسية .ومن ثم يمكننا القول أن ايمان الناس بالرسول ودعوته وقبولهم الخضوع لزعامته بمحض اختيارهم كان هو الأساس الواقعي الذي استند عليه الرسول في تأسيس سلطاته السياسية .

وقد يرد في هذا المجال اعتراض : ان الرسول استخدم السيف في محاربة خصومه واخضاعهم لسلطته . فكيف يصح اطلاق الحكم بأن الرسول قد أسس سلطته على أساس من اختيار الناس وقناعتهم ؟ ... والجواب ، ان الرسول لم يستخدم السيف ضد خصومه الا بعد هجرته الى المدينة وتأسيس الدولة الاسلامية فيها . ومن ثم فأن أستخدام الرسول للسيف كان وسيلة لتدعيم هذه الدولة واضعاف خصومها وليس وسيلة لانشاء هذه الدولة أو تأسيس سلطته السياسية فيها .

ويلاحظ ان هذه الطريقة في تأسيس السلطة السياسية استناداً الى حق النبوة قد اغلقت الى النهاية بوفاة الرسول ، لأن القرآن نص على أن الرسول محمداً هو آخر الانبياء « خاتم النبيين » : « ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (١٢) وبذلك لم يعد مسموحاً لأحد أن يدعي بعد وفاة الرسول انه نبي مرسل من الله ، وان على الناس ان يخضعوا لسلطته السياسية استناداً الى رسالته الدينية . لذا فقد روى جمهور المؤرخين — عدا الشيعة — « ان الرسول لم يعين أحداً ليخلفه في الحكم المسلمين بعد وفاته (١٣) وأكتفى بترك القرآن والسنة ليعتصم بهما المسلمون من بعده ، ولكن المشكلة ان القرآن والسنة لم يبينا من الذي يتولى الرئاسة من بعده ولا كيف يتم اختيار من يشغل هذا المنصب(١٤):

وقد تحير آرنولد في تعليل هذه المسألة بقوله : « لم يعين النبي خلفاً له ، ومن العبث ان نتحرى لماذا اهمل على الرغم من عبريقته في التنظيم ان يحتاط لمستقبل الجماعة الدينية الحديثة التي أسسها ، فقد ساءت صحته لمدة من الزمن قبل مرضه الاخير وربما كان

---

(١٢) سورة الاحزاب : ٤٠

(*) سنعرض ونناقش وجهات نظر الشيعة في بحث لاحق عن : أساليب تداول السلطة في الفكر الاسلامي .وهم يعتقدون أن الرسول قد أوصى بأن يتولى علي بن أبي طالب الحكم من بعده.

(١٣) ابن هشام السيرة .مصر ١٩٥٥ ،ج ٤ ص ٦٥٣ .ابن سعد. ،الطبقات .بيروت ١٩٦٠. ج ٢ ص ٢٤٦ الطبري .تاريخ ،بيروت ٩٦٥ .ج ٤ ص ١٨٠٧ — ١٨٠٨

(١٤) فلهاوزن .يوليوس تاريخ الدولة العربية ؛ترجمة د.محمد عبدالهادي أبوريدة. القاهرة ١٩٦٨ ص ٣٢

مشوشا في جسمه وعقله مثل (او ليفر كروموبل) فلم يتمكن من التفرغ لذلك الامر ، ومن المحتمل ايضاً انه كان نابغة عصره فأدرك قوة الشعور القبلي العربي الذي لا يعترف بمبدأ الوراثة في اشكال حياته السياسية البدائية بل كان يترك لاعضاء القبيلة أمر انتقاء أميرهم الخاص(١٥).

ان الاحتمال الاول الذي اورده آرنولد يبدو ضعيفاً ، لأن مرض الرسول لم يكن من الشدة بحيث يمنعه من تعيين خلفه خصوصاً وانه لم يعجزه عن تكليف ابي بكر ليصلي بالناس نيابة عنه وان يأمر المسلمين بانفاذ جيش أسامة ولو صح جدلا ان المرض قد منعه في ايامه الاخيرة فلماذا لم يبين طوال حياته من سيخلفه بالسلطة بعد مماته ..

أما الاحتمال الثاني فهو أقرب الاحتمالات إلى القبول خصوصا واننا نعلم بأن الرسول لم يتسلم سلطته السياسية بصفته الشخصية وانما بصفته رسول الله .. ولما كانت صيغة الرسالة او النبوة قد انتهت بوفاته لأنه خاتم لانبياء وأن النبوة لاتورث فتكون السلطة السياسية المنبثقة عنها هي الاخرى غير قابلة للوراثة ، او التصرف وتعود بوفاة صاحبها إلى اصحابها الاصليين وهم أبناء الامة ليختاروا من يولونه امورهم السياسية طبقا لما استقر في مجتمعهم من عرف وتقاليد في هذا المجال . يؤيد ذلك ماأكده القرآن الكريم : « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (١٦) وكذلك مارواه أبن هشام من أن ابا سفيان قد ابدى دهشته من مدى قوة ملك الرسول حين فتح مكة حينما قال للعباس : « والله يا ابا الفضل لقد اصبح ملك أبن أخيك الغداة عظيماً » فرد عليه العباس مصححاً : « يا ابا سفيان ، انها النبوة » . « قال فنعم اذن » (١٧) . وفي ذلك يقول علي عبد الرازق (١٨) : « زعامة النبي عليه السلام كانت كما قلنا ، زعامة دينية ، جاءت عن طريق الرسالة لاغير . وقد انتهت الرسالة بموته (ص) فانتهت الزعامة ايضاً ، وما كان لاحد ان يخلفه في زعامته ، كما انه لم يكن لاحد ان يخلفه في رسالته . فان كان ولابد من زعامة بعد اتباع النبي عليه السلام بعد وفاته ، فانما تلك زعامة جديدة غير التي عرفناها لرسول الله (ص) » .

---

(١٥) ارنولد: توماس .الخلافة ترجمة جميل معلس .دار اليقظة العربية ١٩٤٦ .ص راجع أيضاً:
Macdonald, D., B, Development of Muslim theology Beirut, 1965·p8

(١٦) سورة الاحزاب . ٤٠

(١٧) ابن هشام . السيرة . قسم ٢ .ص ٤٠٤

(١٨) الاسلام واصول الحكم . بيروت ١٩٧٢ ص ١٧٤ . راجع أيضاً :
Levy, R. The cocial structure of Islam, Cambridge, 1957. p.p.,..276-277

انتقال السلطة لابي بكر .

وعند وفاة الرسول (ص) بادر الانصار إلى الاجتماع في سقفية بني ساعدة – وهم بطن من الخزرج – لانتخاب من يخلف الرسول في رئاسة المسلمين . وقد كان مرشحهم هو سعد بن عبادة ، زعيم الخزرج .. وقد كانت حجتهم في ترشيح سعد للخلافة انهم أنصار الله وكتيبة الاسلام ، إضافة إلى انهم اهل المدينة وسكانها الاصلاء بعكس المهاجرين الوافدين عليها (١٩)

ولكن يلاحظ ان ترشيح سعد بن عبادة للخلافة لم يحظ بالتأييد من قبل جميع الانصار . فقد كانت قبيلة الاوس تنظر بعين الريبة والحذر إلى طموحات الخزرج في تولي السلطة وتمتد جذور هذه الريبة إلى ما قبل هجرة الرسول (ص) إلى المدينة ، حيث كان الصراع عنيفاً بين القبيلتين في سبيل السيطرة والنفوذ ، حتى ان عبد الله أبن أبي احد زعماء الخزرج كان قد تصدى لمعارضة الرسول ، أثر هجرته إلى المدينة ، وقاد حركة النفاق في المدينة لانه كان يعتقد ان الرسول قد سلبه السلطة والملك الذي كان يمني نفسه بتوليه في المدينة (٢٠)

وحينما بلغت اخبار اجتماع السقيفة إلى ابي بكر وعمر قررا المبادرة إلى الحضور للمشاركة في النقاش واتخاذ القرار ، وقد حضر معهما من تيسرله الحضور من المهاجرين ولم يوافق المهاجرون على حجج ترشيح سعد بن عبادة للخلافة ، بل طرحوا حججاً معاكسة مفادها ان العرب لن تسلم أمرها الا للمهاجرين من قريش لانهم « اوسط العرب نسباً ودارا » (٢١) « وانهم اول من عبد الله في الارض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم اولياءه وعشيرته واحق الناس بهذا الامر من بعده » (٢٢) .

وقد انحاز إلى جانب المهاجرين من الانصار « اسيد بن حضير في بني عبد الاشهل »(٢٣) ورجلان آخران من الانصار هما عويم بن ساعدة ومعن بن عدي أخو بني العجلان (٢٤) ويظهر ان عموم افراد قبيلة الاوس اخذوا يميلون إلى جانب المهاجرين ، مما حمل الحباب ابن المنذر من الخزرج إلى طرح فكرة الاشتراك في السلطة مع المهاجرين في حكم الدولة

---

(١٩) ابن هشام ، السيرة . ج ٤ ص ٦٥٩

(٢٠) يراجع بحثنا . المنافقون في مدينة الرسول . مجلة كلية الدراسات الأسلامية . بغداد ١٩٧٣ . ص ٤٦٩ – ٥٠٨

(٢١) ابن هشام ، السيرة . ج ٤ ص ٦٥٩

(٢٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ص ١٨٤٠

(٢٣) ابن هشام ، السيرة ، ج ٤ . ص ٦٥٦

(٢٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٦٦٠

الاسلامية : « منا امير ومنكم امير » (٢٥) الا ان عمر بن الخطاب رفض هذه الفكرة بحزم : « هيهات لايجتمع اثنان في قرن ، والله لاترضى العرب ان يؤمروكم ونبيها من غيركم » (٢٦) فكثر اللغط وارتفعت الاصوات فاقبل عمر إلى أبي بكر — لحسم الخلاف — فقال : « أبسط يدك ياأبا بكر فبسط يده فبايعه ، ثم بايعه المهاجرون » (٢٧) .

أما الاوس فقد قالوا : «والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة ، لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولاجعلوا لكم معهم فيها نصيباً ابدا»(٢٨) . فقاموا إلى أبي بكر فبايعوه ثم توالى الناس على بيعةأبي بكر « فتكسر على سعد بن عبادةوعلى الخزرج ماكانوا اجمعوا له من امرهم » (٢٩) .

وربما كان مما سهل بيعة الناس لابي بكر الصديق بالاضافة إلى ماتقدم آنفاً ، واضافة إلى كبر سنه وسابقته في الاسلام وجهاده في سبيله ، ان الرسول كان قد انابه للصلاة بالمسلمين مكانه اثناء مرضه الذي توفي فيه . فقال الناس : قد رضينا لدنيانا من رضي رسول الله لديننا (٣٠)وقد وصف عمر بن الخطاب فيما بعد بيعة أبي بكر في اجتماع السقيفة بقوله : «ان بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت ، وانها قد كانت كذلك الا أن الله قد وقى شرها»(٣١) ويشير الطبري إلى انها : « كانت فلتة كفلتات الجاهلية » (٣٢) . فماذا يعني بذلك ؟ هل يعني انها تمت بصورة تلقائية من غير سابق تدبير وتصميم ؟ ربما . .. ولكن ماذا عنى الطبري بقوله : فلتة كفلتات الجاهلية ؟ ... هل ان اختيار أبي بكر تم كما كان يتم انتخاب الشيخ لدى عرب الجاهلية ؟ ...

ان هذا الاستنتاج يتلاقى مع ماذكره آرنولد من ان انتخاب ابي بكر يعد مثالا « لعادة عربية قديمة ينتقل بحسبها منصب رئاسة القبيلة عندما يموت شيخها إلى من كان يتمتع من القبيلة باعظم النفوذ . فينتخب كبار القبيلة احدهم لاملاء المكان الشاغر . ويكون محترماً أما لسنه او لنفوذه او لخدماته المجيدة للصالح العام .ولم يكن لديهم طريقة معقدة رسمية

---

(٢٥) المصدر نفسه ،ج ٤ص ٦٦٠

(٢٦) الطبري ،تاريخ ،ج٤ .ص ١٨٤١

(٢٧) ابن هشام، السيرة ،ج ٤ ص ٦٦٠

(٢٨) الطبري .تاريخ ،ج ٤ ص ١٨٤٢ — ١٨٤٣

(٢٩) المصدر نفسه ،ج٤ ص ١٨٤٣

(٣٠) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ص ١٨٣

(٣١) ابن هشام : السيرة ،ج٤ ص ٦٥٨

(٣٢) الطبري ، تاريخ ،ج٤ ص ١٨٤٥

للانتخاب ولم يكن ضرورياً في مثل هذه الزمرة الاجتماعية الصغيرة . وبعد اختيار الخلف كان يتسم الحاضرون يمين الولاء له واحداثر الآخر مصافحين اياه باليد » (٣٣) .

وهكذا كان ، ففي اليوم الثاني ، جلس أبو بكر في المسجد ليتلقى البيعة من سكان المدينة « فبايع الناس ابا بكر بيعة العامة ، بعد بيعة السقيفة » (٣٤) والبيعة كما يذكر ابن خلدون «هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهدأميره على انه يسلم له النظر في أمر نفسه وامور المسلمين لاينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من امر على المنشط والمكره » (٣٥)

وبذلك خلف أبو بكر رسول الله في رئاسة الدولة العربية الاسلامية ، فأصبح خليفة رسول الله او الخليفة .

ان ساعة اختيار أبي بكر للخلافة من قبل أغلبية الحاضرين في اجتماع السقيفة . ومبايعة أغلبية سكان المدينة له بعد ذلك . تدل على ان اختيار الخليفة قد تم بإرادة أغلبية سكان المدينة القادرين على المساهمة في الحياة العامة. ولم تكن هنالك شروط ومواصفات محددة لهم كما اشترط الفقهاء من بعد ذلك في اهل الحل والعقد . ولم يكن الاجماع شرطا لاختيار الخليفة او مبايعته فقد انتخب أبو بكر على الرغم من معارضة سعد بن عبادة وانصاره ورغم تخلف علي بن أبي طالب وبعض بني هاشم عن البيعة فترة من الزمن ، لم تتجاوز ستة أشهر (٣٦) — على مايروي الطبري — ربما ، بسبب اعتقاد علي بانه احق من غيره بالخلافة لقرابته من رسول الله (ص) ، وبسبب خلاف نشب بين زوجته فاطمة وأبي بكر الصديق حول حقها في ميراث الرسول على ارجح الاقوال (٣٧) .

ان ماتقدم يدل على ان مبايعة أبي بكر بمنصب الخلافة ، لم تنعقد بمجرد مبايعة عمر ابن الخطاب وعدد قليل من الصحابة ، كما تصور بعض الفقهاء (٣٨) . بل انعقدت نتيجة موافقة أغلبية « معتبري ذلك الزمان » (٣٩) . وفي توضيح ذلك يقول الغزالي : لما بايع عمر ابا بكر بمنصب الخلافة لم تنعقد الخلافة له بمجرد بيعته ولكن : « لتتابع الايدي الى البيعة بسبب مبادرته ولو لم يبايعه غير عمر وبقي كافة الخلق مخالفين ، او انقسموا إنقساماً

(٣٣) آرنولد .الخلافة ،ص ٨

(٣٤) ابن هشام ، السيرة .ج٤ ص ٦٦١

(٣٥) ابن خلدون ،مقدمة ابن خلدون ،بيروت ط٣ .دار أحياء التراث العربي ص ٢٠٩

(٣٦) الطبري ، تاريخ ،ج٤.ص ١٨٢٠ — ١٨٢٥

(٣٧) الطبري .تاريخ ،ج٤ص ١٨٢٠ . ١٨٢٥ .طه حسين .مرآة الأسلام .مصر ١٩٥٩.ص ١٣١ — ١٣٢

(٣٨) الماوردي .الاحكام السلطانية .مصر ٩٦٠ .ص ٧ .

(٣٩) الغزالي ،أبو حامد ،فضائح الباطنية ،القاهرة ١٩٦٤ ص ١٧٧

متكافئا ، لايتميز فيه غالب عن مغلوب لما انعقدت الامامة ، فان شرط ابتداء الانعقاد قيام الشوكة وانصراف القلوب إلى المشايعة ومطابقة البواطن والظواهر على المبايعة ، فان المقصود الذي طلبنا له الامام جمع شتات الاراء في مصطدم تعارض الاهواء » (٤٠) .

وهنا قد يطرح تساؤل ، اذا كان ماتقدم صحيحا ، فلماذا اقتصر اختيار الخليفة على سكان المدينة فقط ؟ ...

يبدو ان اقتصار الانتخاب على سكان المدينة دون غيرهم من أبناء الأمة الاسلامية المتواجدين خارج المدينة ، لا يرجع لامتياز خاص كانت تتمتع به المدينة او سكانها وانما يرجع الى صعوبة المواصلات في تلك العصور وضرورة اختيار الخليفة بسرعة وعدم معرفة العرب لنظام الانتخاب والتصويت كما نعرفه اليوم. لذا فقد كان يحق لأي فرد من أبناء الأمه بغض النظر عن محل اقامته في الدولة الإسلامية أن يشارك في الانتخاب لو كان متواجداً في المدينة أثناء انتخاب الخليفة ، في الوقت الذي يفقد ابن المدينة هذا الحق لو صادف وجوده خارجها أثناء الانتخاب كما حصل بالنسبة لطلحة بن عبيدالله الذي سقط حقه في « الترشيح والانتخاب » بسبب سفره خارج المدينة ، على الرغم من كونه من ضمن الستة الذين عهد اليهم عمر بن الخطاب لاختيار الخليفة من بينهم (٤١) .

وفي هذا يقول الماوردي : وليس لمن كان في بلد الامام على غيره من أهل البلاد فضل مزية يتقدم بها عليهم ، وانما صار من يحضر بلد الامام متوليا لعقد الامامة ، عرفا لاشرعاً لسبوق علمهم بموته ، ولأن من يصلح للخلافة في الأغلب موجود في بلدهم (٤٢).

أبو بكر والعهد بالخلافة لعمر بن الخطاب

يبدو أن أبا بكر الصديق كان مدركا ان توليه الخلافة كان : « فلتة ، فتمت .. الا أن الله وقى شرها » لأنها جاءت فجأة ، من غير روية ولا تدبير . لذا فقد كان يبحث عن أسلوب لتداول السلطة يضمن عدم تعريض المجتمع لمخاطر الانقسام خصوصاً في تلك تلك الظروف الحساسة التي كانت الجيوش الاسلامية مشتبكة فيها مع الامبراطورية الساسانية والامبراطورية البيزنطية في معارك مصيرية حاسمة .

لذا فقد فكر باختيار من يتولى الحكم من بعده قبل وفاته .

---

(٤٠) نفس المصدر .ص ١٧٧ :

(٤١) الطبري .تاريخ .ج٥ ص ٣٧٨٧ .

(٤٢) الماوردي .الاحكام السلطانية .ص ٦

وكان عمر بن الخطاب أقرب الشخصيات الصالحة لهذا المنصب إلى قلبه فهو بالاضافة إلى جهاده الطويل في خدمة الاسلام ومكانته البارزة في المجتمع ، كان أول من عمل على مبايعة أبي بكر بمنصب الخلافة. وكان أقرب الأعوان اليه في حكم البلاد، حتى انه كان يحتل « موقع الوزير من الأمير» ان لم يكن أكثر من ذلك (٤٣) . فلا عجب أن وجدنا ابا بكر يقوم قبل وفاته باجراء بعض الاستشارات للعهد إلى عمر بمنصب الخلافة من بعده . فقد ذكر الطبري ان ابا بكر استشار عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان كلا على حده « لما اراد العقد » (٤٤) لعمر بن الخطاب بالخلافة فشجعاه على ذلك . الا أن عبد الرحمن بن عوف تخوف من غلظة عمر فقال له ابو بكر : « ذلك لأنه يراني رقيقاً ، ولو افضى الامر اليه لترك كثيراً مما هو عليه » (٤٥) .

ثم ان ابا بكر دعا عثمان لكتابة الصحيفة التي فيها استخلاف عمر والتي اوردها الطبري بهذا النص : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماعقده ابو بكر بن ابي قحافة إلى المسلمين أما بعد : فاني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً» (٤٦) ثم اشرف ابو بكر على الناس وهو يقول : « اترتضون عمن استخلف عليكم ، فأني والله ماالوت من جهدي الرأي ، ولا وليت ذا قرابة ، واني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . فقالوا : سمعنا وأطعنا » (٤٧) .

ولم يستقبل استخلاف أبي بكر لعمر بالرضى من قبل جميع سكان المدينة ، بل كان هنالك من يعترض على اختيار عمر لهذا المنصب ويجهر بمعارضته فقد « دخل طلحة بن عبيدالله على أبي بكر فقال : استخلفت على الناس عمر ، وقد رأيت مايلقى الناس منه وانت معه. فكيف به اذا خلا بهم وانت لاق ربك فسائلك عن رعيتك؟ فقال ابو بكر :— وكان مضطجعاً — اجلسوني . فأجلسوه . فقال لطلحة : ابالله تفرقني ؟ أو ابالله تخوفني ؟ اذا لقيت ربي ، فيساياني . قلت : استخلفت على اهلك خير اهلك »(٤٨) . ويظهر ان معارضة طلحة لاستخلاف عمر كانت تعكس وجهة نظر قطاع ليس بالقليل من سكان المدينة . فقد اورد الطبري ان عبد الرحمن بن عوف دخل على أبي بكر فوجده مغتما . فلما سأله عن السبب أخبره : « اني وليت امركم خيركم في نفسي. فكلكم ورم

(٤٣) فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٣٣ — ٣٤ .
(٤٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ص ٢١٣٧
(٤٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢١٣٧
(٤٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢١٣٨ — ٢١٣٩
(٤٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢١٣٨
(٤٨) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢١٤٣ — ٢١٤٤

انفه من ذلك ، يريد أن يكون الأمر له دونه » (٤٩) . غير أن عبد الرحمن بن عوف حاول التخفيف عنه بقوله : « خفض عليك رحمك الله فإن هذا يهيضك في أمرك . انما الناس في أمرك بين رجلين ، أما رجل رأى مارأيت فهو معك . واما رجل خالفك فهو مشير عليك . وصاحبك كما تحب . ولا نعلمك اردت الا خيراً » (٥٠) .

ويبدو أن المعارضة لاستخلاف عمر كانت تنحصر بين كبار الصحابة المتطلعين إلى شغل منصب الخلافة ، كما يوحي بذلك حديث أبي بكر لعبد الرحمن بن عوف . لذا فقد استقبل عموم الناس استخلاف عمر بن الخطاب بالطاعة والرضا .

وهنا تطرح مسألة جديرة بالمناقشة ، وهي ما قيمة عهد أبي بكر لعمر بالخلافة لو لم تستقبله أغلبية الناس بالرضا ، وتبادر إلى مبايعة عمر على السمع والطاعة ؟ ... لقد أوضح الغزالي أنه لاقيمة لهذا العهد إلا إذا كان صاحبه مطاعاً ، ذا شوكة لاتطال ، ومهما مال إلى جانب مالت بسببه الجماهير ، ولم يخالفه إلا من لايكترث بمخالفته (٥١) . كما قرر ابن تيمية ان الامامة « ملك وسلطان ، والملك لايصير ملكاً بموافقة واحد ولا اثنين ولا أربعة ، إلا أن تكون موافقة هؤلاء تقتضي موافقة غيرهم بحيث يصير ملكاً بذلك » (٥٢) .. ثم « أنه متى صار إماما ، فذلك بمبايعة أهل القدرة له ، وكذلك عمر لما عهد اليه أبو بكر انما صار اماماً لما بايعوه اطاعوه ، ولو قدر انهم لم ينفذوا عهد أبي بكر ولم يبايعوه لم يصر اماماً .. » (٥٣)

فالتكييف القانوني لبيعة أبي بكر لعمر أو عهده له بمنصب الخلافة من بعده ، لا يعدو في حقيقته مجرد ترشيحه له لشغل هذا المنصب . ثم أن الأمر متروك بعد ذلك لارادة أهل الشوكة أو أهل الحل والعقد الذين يتبعهم أغلبية أهل المدينة فإن بادروا للبيعة واعلان السمع والطاعة انعقدت الخلافة للمرشح وان لم يفعلوا ووقفوا موقف المعارضة سقط الترشيح وكان عليهم إختيار من يرضونه لشغل منصب الخلافة .

ويبدو أن هذه الطريقة في تداول السلطة لم تكن غريبة على تقاليد العرب في اختيار الرئيس . وفي ذلك يقول توماس آرنولد : « عندما تكون وضعية فرد على درجة من الرفعة تعينه ليكون الخلف النهائي لرئيس القبيلة الراحل فإنه من الثابت أن رجلا كهذا ، قد يحل محل الرئيس المتوفى من غير حاجة إلى مراسيم ، وعلى بقية القبيلة أن تعبر عن

(٤٩) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢١٣٩
(٥٠) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢١٤٠
(٥١) الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص ١٧٦
(٥٢) ابن تيمية ، منهاج السنة النبوية . القاهرة ٩٦٢ ، ج ١ ص ٣٦٥
(٥٣) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٣٦٧

موافقتها بتسميها يمين الولاء له » (٥٤). وهذا ماحصل فعلاً حينما عهدابو بكر لعمر بمنصب الخلافة نظراً لمكانته الكبيرة في المجتمع الاسلامي .

الا انه من الملاحظ ان اغلبية الفقهاء وعلى رأسهم الماوردي قد اعتبروا هذه السابقة دليلا على جواز الخلافة بعهد الخليفة السابق وجعلوا من واجب الأمة المبادرة الى البيعة مما جعل العهد صورة من صور التعيين وليس مجرد الترشيح كما قدمنا . يقول الماوردي : « واما انعقاد الامامة بعهد من قبله ، فهو مما انعقد الاجماع على جوازه ، ووقع الاتفاق على صحته ، لامرين عمل المسلمون بهما ولم يتناكروهما : احدهما ان ابا بكر رضي الله عنه عهد بها الى عمر رضي الله عنه فاثبت المسلمون امامته بعهده .. » (٥٥) .

وهكذا قدم الفقهاء بهذا التفسير — سواء شعروا بذلك أم لم يشعروا — سنداً شرعياً للخلفاء الامويين والعباسيين ومن جاء بعدهم من الحكام لتداول السلطة عن طريق التعيين والوراثة وتجاهل ارادة الأمة في هذا المجال .

* مبايعة عثمان :

لما طعن عمر بن الخطاب قيل له ياأمير المؤمنين لو استخلفت ،قال : من استخلف ؟او كان ابوعبيدة بن الجراح حياً استخلفته.فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الامة . ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته ، فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول ان سالماً شديد الحب لله . فقال له رجل : ادلك عليه ؟ عبدالله بن عمر . فقال : قاتلك الله ، والله ماارادت الله بهذا ، ويحك كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ، لاارب لنا في اموركم . ماحملتها فارغب فيها لاحد من اهل بيتي . ان كان خيراً فقد أصبنا منه. وان كان شراً فشرعنا الى عمر بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد . اما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي وان نجوت كفافاً لاوزر ولا أجراني لسعيد . وانظر فان استخلفت فقد إستخلف من هو خير مني وان اترك فقد ترك من هو خير مني ولن يضيع الله دينه » (٥٦) .....

يتضح من رواية الطبري ان عمر كان متردداً بين ترك امر الخلافة للناس ليختاروا لهم من احبوا كما فعل الرسول من قبل وبين اتباع نهج ابن بكر في العهد لاحد اصحابه بالخلافة ويبدو ان عمر بن الخطاب كان اميل الى اسلوب العهد في اختيار الخليفة ولكن المشكلة الأساسية التي كان يواجهها ان ذكر لم يكن مستقراً على الشخص الذي يستطيع ان يعهد اليه بثقة واطمئنان . ذلك انه كان يود ان يعهد الى ابي عبيدة بن الجراح بالخلافة ، ولكن

(٥٤) آرنولد . الخلافة ، ص٨

(٥٥) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٠

(٥٦) الطبري ، تاريخ ، ج٥ ص ٣٧٧٦ — ٣٧٧٧

ابا عبيدة كان قد توفي. ولا بد لنا هنا ان نتذكر موقف ابي عبيدة المتضامن مع عمر اثناء اجتماع السقيفة في ترشيحه ومبايعته لابي بكر لنفهم بعض حماسه له .

كما كان يميل لشخص ثان هو الاخر قد توفي وهو سالم مولى ابي حذيفة ليعهد اليه بالخلافة «لأن سالماً شديد الحب لله» ولكن يلاحظ ان ماذكر عن اتجاه عمر في العهد لمولى غير قرشي بالخلافة رغم انسجامه مع توجيهات القرآن الكريم: « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » يتناقض مع ماينسب إلى ابي بكر الصديق في اجتماع السقيفة من أنه عارض ترشيح الانصار لسعد بن عبادة لمنصب الخلافة بحجة أن الرسول (ص) قد قال : الائمة من قريش » (٥٧) فهل يعقل ان ينكر عمر بان يعهد لشخص بمنصب الخلافة خلافاً لاوامر الرسول ؟ ... وكيف يعارض عمر انتخاب احد زعماء الانصار لمنصب الخلافة بحجة ان قريشاً احق بالخلافة من الانصار ليأتي بعد ثلاثة عشر عاماً ليفكر بإسناد منصب الخلافة إلى أحد موالي قريش لانه شديد الحب لله ؟ ... .

يبدو أن ما نسبه الطبري لعمر بن الخطاب فيما يخص تفكيره للعهد إلى سالم بالخلافة هو من وضع الوالي لتثبيت حقهم في المساواة مع العرب .

ولمواجهة مانسبته قريش من احاديث إلى الرسول (ص) في تثبيت حقها في الخلافة دون غيرها من العرب والمسلمين .

كذلك يلاحظ ان الحوار الذي اورده الطبري بين عمر بن الخطاب والرجل الذي اقترح عليه العهد لابنه عبدالله بالخلافة يشكل رداً قوياً على معاوية وغيره من الخلفاء الامويين والعباسيين الذين ساروا على قاعدة العهد لابنائهم بمنصب الخلافة . فهل هذا الحوار هو الآخر من وضع العصور المتأخرة ؟ ... ربما كان ذلك وان كان من غير المستبعد على عمر ان يتخذ مثل هذا الموقف خصوصاً وان ابنه عبدالله كان ضعيفاً مما يجعله غير اهل لشغل هذا المنصب الخطير .

لقد وجد عمر ان خير حل للخروج من المأزق الذي كان يعيشه في اللحظات الاخيرة من حياته ومن أجل الا يتحمل مسؤولية الخلافة « حياً وميتاً » ان يعهد إلى ستة اشخاص ليختاروا من بينهم من يشغل منصب الخلافة وهم علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله . وقد دعاهم جميعاً عدا طلحة الذي كان في سفر وخاطبهم بقوله: «اني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولايكون هذا الامر الا فيكم، وقد قبض رسول الله (ص) وهو عنكم

(٥٧) الماوردي . الأحكام السلطانية . ص ٦

راض . اني لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكني اخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس » (٥٨) ثم حدد لهم طريقة الانتخاب بقوله : « فاذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام . وليصل بالناس صهيب . ولايأتين اليوم الرابع الا وعليكم امير منكم. ويحضر عبدالله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الامر وطلحة شريككم في الامر فان قدم في الأيام الثلاثة فاحضروه امركم وان مضت الايام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا امركم » (٥٩)

وقد ذكر الطبري ان عمر بن الخطاب قال لابي طلحة الانصاري : « يا أبا طلحة ان الله طالما أعز الاسلام بكم ، فاخترخمسين رجلا من الانصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم ، وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم . وقال لصهيب صل بالناس ثلاثة أيام وادخل علياً وعثمان والزبير وسعدا وعبدالرحمن بن عوف وطلحة ان قدم واحضر عبدالله بن عمر ولاشيء له من الامر ، وقم على رؤوسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا وابى واحد فاشدخ راسه او اضرب رأسه بالسيف ان واتفق اربعة فرضوا رجلا منهم وابى اثنان فاضرب رؤوسهما، فان رضي ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا منهم فحكموا عبدالله بن عمر فأي فريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم . فان لم يرضوا بحكم عبدالله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس » (٦٠)

ويلاحظ الباحث ان جميع الستة الذين عهد اليهم عمر لاختيار الخليفة من بينهم كانوا من قبيلة قريش مما يدل على تفرد هذه القبيلة بالساحة السياسية وتضاؤل دور الانصار في هذا المجال بعد أن لعبوا دوراً كبيراً في نصرة الاسلام وتثبيت دعائمه . كما لا يظهر في هذه المرحلة اثر ملموس لبقية القبائل العربية او الامصار الاسلامية في هذا المجال .

ويظهر من استقراء النصوص التي اوردها الطبري ان عمر بن الخطاب كان ميالا للعهد بمنصب الخلافة إلى عبدالرحمن بن عوف دون غيره ولكن زهد عبدالرحمن في هذا المنصب على مايظهر هو الذي جعل عمر يعهد إلى الستة بهذا الامر ويوصي بترجيح الجانب الذي فيه عبدالرحمن بن عوف في حالة الانقسام . فقد اشار الطبري إلى أن عمراً دعا عبدالرحمن بن عوف إلى داره بعد اصابته فقال له : « اني أريد ان أعهد اليك . فقال يا أمير

(٥٨) الطبري ، ج ٥ ص ٢٧٧٨

(٥٩) نفس المصدر، ج ٥ ص ٢٧٧٨ — ٢٧٧٩

(٦٠) نفس المصدر، ج ٥ ص ٢٧٧٩ — ٢٧٨٠

المؤمنين ، نعم ان أشرت علي قبلت منك . قال وما تريد ؟ قال انشدك الله ، أتشير علي بذلك ؟ قال اللهم لا . قال والله لا ادخل فيه أبداً . قال فهب لي صمتاً حتى أعهد إلى النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض » (٦١) .

ويبدو ان عمر كان يحس حدة المنافسة على منصب الخلافة بين بقية المرشحين ويخشى عواقب انقسامهم على وحدة الامة الاسلامية لذا فقد اوصاهم بالوحدة وعدم التفرق كما وضع مجموعة من الاجراءات والضوابط التي تحول دون الانقسام وتمنع تفاقمه في حالة وقوعه كما هو واضح من النصوص التي وردت آنفاً .

وقد ظهر جلياً ان المناقشة على منصب الخلافة كانت تنحصر بين بيتين من بيوتات قريش هما بنوهاشم يتزعمهم علي بن ابي طالب وبنو امية يتزعمهم عثمان بن عفان . وترجع جذور المنافسة بين هذين البيتين إلى أيام الجاهلية ثم امتدت حين ظهور الاسلام اذ اتخذ بنو امية موقف المعارضة من الدعوة الاسلامية بقيادة ابي سفيان الذي تولى زعامة المشركين في مكة عامة بينما وقف بنو هاشم بقيادة ابي طالب موقف المتعاطف والمساند للدعوة.

لقد كان انتصار الاسلام على مشركي مكة والجزيرة العربية بمثابة انتصار لبني هاشم وخذلان لبني امية . ولكن بني امية لم يستسلموا للامر الواقع فسرعان ما اعتنقوا الاسلام وركبوا الموجة الصاعدة حتى برز من بينهم رجال احتلوا مراكز مرموقة في عهد ابي بكر وعمر كمعاوية بن ابي سفيان الذي اصبح والياً على الشام ويزيد بن ابي سفيان الذي كان احد قادة جيوش حرب الردة والفتح الاسلامي (٦٢) .

وقد كان من اسباب تقدم بني امية على بني هاشم تمرسهم بشؤون الحكم والسياسة منذ الجاهلية اضافة إلى غناهم ونشاطهم في حقل التجارة مما ساعدهم على توثيق صلاتهم مع الناس واحتلالهم مواقع مؤثرة في المجتمع . فلا غرابة ان وجدنا اغلبية المرشحين لمنصب الخلافة ينحازون إلى عثمان بن عفان مرشح بني امية للخلافة ويتخلون عن علي بن ابي طالب مرشح بني هاشم .

لقد كان علي يحس بهذا الاتجاه منذ البداية لذا فقد خاطب قومه بقوله : « ان اطع فيكم قومكم لم تؤمروا ابداً . وتلقاه العباس فقال : عدلت عنا ، فقال : وما علمك ؟ قال : قرن بي عثمان ، وقال : كونوا مع الاكثر ، فان رضي رجلان رجلا ، ورجلان رجلا فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف . فسعد لا يخالف ابن عمه عبدالرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان ، لا يخلفون فوليها عبدالرحمن عثمان اويوليها عثمان

(٦١) المصدر نفسه :ج٥ص ٣٧٢٤ – ٣٧٢٥

(٦٢) فلهاوزن ،تاريخ الدولة العربية ص ٣٩

عبد الرحمن . فلو كان الاخران معي لم ينفعاني ، بله أنيلا أرجو إلا أحدهما (٦٣)
فلما توفي عمر واخرجت جنازته اجتمع المرشحون للخلافة عدا طلحة الذي كان في سفر ليختاروا من بينهم خليفة « فتنافس القوم في الأمر وكثر بينهم الكلام » (٦٤) « فقال عبد الرحمن أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ فلم يجبه أحد فقال : فأنا أنخلع منها . فقال عثمان أنا أول من رضي فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أمين في الأرض أمين في السماء . فقال القوم قد رضينا ، وعلي ساكت فقال ماتقول ياأبا الحسن قال : أعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألو الامة. فقال أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من يدل (وغيروان ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه وآلو المسلمين) فأخذ منهم ميثاقاً واعطاهم مثله . فقال لعلي : انك تقول اني أحق من حضر بالأمر لقرابتك (وسابقتك وحسن أثرك في الدين . لم تبعد ، ولكن ارأيت لو صرف هذا الأمر عنك ، فلم) تحضر من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر. قال : عثمان . وخلا بعثمان فقال : تقول شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه لي سابقة وفضل. لم تبعد ، (فلن يصرف هذا الأمر عني . ولكن لو لم تحضر ، فأي هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ قال : علي . ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به علياً وعثمان فقال : عثمان . ثم خلا بسعد فكلمه فقال : عثمان (٦٥)

يتضح مما تقدم أن أهل الشورى كانوا مجمعين على اختيار عثمان واستبعاد علي . ولكن على الرغم من ذلك فقد بقي عبد الرحمن ثلاثة أيام « يلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من امراء الأجناد واشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان حتى إذا كانت الليلة التي يستكمل في صبيحتها الأجل » (٦٦) .دعا الناس للاجتماع بعد صلاة الصبح في المسجد . « فاجتمعوا حتى التج المسجد بأهله فقال : أيها الناس أن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بامصارهم وقد علموا من أميرهم .فقال سعيد بن زيد : انانراك لها أهلاً فقال : اشيروا عليّ بغير هذا . فقال عمار : إن اردت أنلايختلف المسلمون فبايع علياً . فقال المقداد بن الأسود . ، صدق عمار أن بايعت علياً قلنا سمعنا واطعنا . قال ابن أبي سرح : إن اردت أن لاتختلف قريش فبايع عثمان . فقال عبد الله بن أبي ربيعة صدق ، إن بايعت عثمان قلنا سمعنا واطعنا . فشتم عمار بن أبي سرح

---

(٦٣) الطبري ،ج ٥ص ٣٧٨٠
(٦٤) الطبري ،ج٥ص ٣٧٨٢
(٦٥) المصدر نفسه ،ج٥ص ٣٧٨٢ — ٣٧٨٣.
(٦٦) المصدر نفسه ،ج٥ص ٣٧٨٣

وقال متى كنت تنصح المسلمين . فتكلم بنو هاشم وبنو أمية .
فقال عمار أيها الناس أن الله عز وجل أكرمنا بنبيه واعزنا بدينه فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم فتال رجل من بني مخزوم . لقد عدوت طورك يابن سمية ، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها فقال سعد بن أبي وقاص ياعبد الرحمن أفرغ قبل أن يفتتن الناس. فقال عبد الرحمن : أني قد نظرت وشاورت فلا تجهلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا . ودعا علياً فقال : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده . قال : أرجو أن أفعل ، وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي قال : نعم ، فبايعه . فقال علي : حبوته حبودهر . ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون ، والله ماوليت عثمان إلا ليرد الأمر اليك . والله كل يوم هو في شأن . فقال عبد الرحمن ياعلي لاتجعل على نفسك سبيلا فإني قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان » (٦٧) « وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه عثمان . فقيل له بايع عثمان فقال : أكل قريش راض به قال نعم . فأتى عثمان فقال له عثمان أنت على رأس أمرك أن ابيت رددتها . قال أترددها قال نعم . قال أكل الناس بايعوك قال نعم . قال قد رضيت ، لا أرغب عما قد أجمعوا عليه وبايعه » (٦٨).

وقد أورد الطبري تعليلاً لسبب اجماع الناس على مبايعة عثمان دون علي على لسان علي بن أبي طالب نفسه : « إن الناس ينظرون إلى قريش وقريش تنظر إلى بيتها . فتقول إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً . وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم » (٦٩) .

فالدافع إذاً هو حرص العرب طبقاً لتقاليدهم القديمة على عدم حصر الرئاسة في بيت واحد مهما كان ذلك البيت وجعل الرئاسة انتخابية يتداولها الناس طبقاً لكفاءتهم وخدماتهم للمجتمع (٧٠).

وهكذا فقد اتبع عمر اسلوباً وسطاً في نقل السلطة بين الاسلوب الذي اتبعه الرسول حين ترك الأمر للناس يرون عليهم من أحبوا وبين الاسلوب الذي اتبعه أبو بكر حين عهد

---

(٦٧) المصدر نفسه ، ج ٥ ص ٣٧٨٥ — ٣٧٨٧

(٦٨) المصدر نفسه ج ٥ ص ٣٧٨٧

(٦٩) المصدر نفسه ، ج ٥ ص ٣٧٨٧

(٧٠) طه حسين ، الفتنة الكبرى ، (عثمان) مصر ١٩٦٦ ، ص ١٥٢ .

لشخص محدد بالذات بمنصب الخلافة . « فهي أقرب إلى الشورى من الطريقة الثانية» (٧١) وإن كانت في مجملها تعتبر اسلوبا من أساليب العهد.

وقد أشار المستشرق الايطالي كيتاني إلى « أن تعيين عمر لجماعة من الناخبين انما كان بدعة الأزمنة المتأخرة لتبرير العملية التي سيطرت طوال العصر العباسي وهي اعلان خلافة ولي العهد من قبل الخليفة أمام كبار الدولة الذين يقسمون يمين الولاء للملك الجديد ثم يتبع ذلك اعلان عام يذيعه على الناس بنتيجة الانتخاب ويوافق عليه بالتهليل » (٧٢) يبدو للباحث أن واقعة تعيين عمر لجماعة من الناخبين من الوقائع التأريخية الثابتة طقباً لما أوردته المصادر المعتمدة كتأريخ الطبري ، وبالتالي فلايمكن أن تكون بدعة الأزمنة المتأخرة. وإنما الذي يمكن اعتباره بدعة الأزمنة المتأخرة لتبرير ولاية العهد التي سادت طوال العصر العباسي هو تفسير هذه الواقعة الذي قدمه الفقهاء والذي يقضي بانعقاد الخلافة بصورة شرعية بمجرد العهد من الخلفة السابق لمن يخلفه في هذا المنصب ، وعدم اعطاء وزن حقيقي لارادة الامة في الانتخاب والبيعة كما قدمنا .

* مقتل عثمان ومبايعة علي بالخلافة :

يروي البلاذري انه : « لما ولي عثمان عاش اثنتي عشرة سنة اميراً فمكث ست سنين لاينقم الناس عليه شيئاً وانه لاحب الى قريش من عمر لشدة عمر ولين عثمان لهم ورفقه بهم . ثم توانى في امرهم واستعمل اقاربه واهل بيته في الست الآواخر واهملهم وكتب لمروان بن الحكم بخمس افريقية واعطى اقاربه المال وتأول في ذلك الصلة التي امر الله بها. واتخذ الاموال واستسلف من بيت المال مالا . وقال ان ابا بكر وعمر تركا من هذا المال ماكان لهما واني آخذه فأصل به ذوي رحمي فأنكر الناس ذلك عليه » (٧٣)

وقد لقيت هذه المآخذ على مايبدو صدى عميقاً في نفوس الانصار من اهل المدينة وعموم العرب من سكان الامصار وعلى الاخص اهل مصر والعراق . كما تجاوب مع الناقدين لعثمان كبار الصحابة من المهاجرين وعلى رأسهم علي بن ابي طالب وطلحة والزبير لاحساسهم بن الخليفة قد تجاوزهم ولم يعد يعتمد عليهم في تسيير امور الدولة (٧٤) ومن ثم نلاحظ

---

(٧١) د. حسن ابراهيم علي ابراهيم ، النظم الاسلامية ، مصر ١٩٣٩ ، ص ٤٦

(٧٢) آرنولد ، الخلافة ، ص ٨ — ٩

(٧٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، القدس ، ج٥ ص ٢٥

(٧٤) فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٣٩ — ٥٠

أنه حين توجه الثائرون على عثمان من المصريين والذين كانوا عددهم في حدود الـ ٥٠٠ شخصاً مع من يؤازرهم من أهل الكوفة والبصرة إلى المدينة لم يلقوا مقاومة تذكر حتى تم لهم قتل عثمان والسيطرة على المدينة (٧٥) .وربما كان من الغريب أن نشير إلى أن الدولة التي قضت على الامبراطورية الساسانية ودحرت الامبراطورية البيزنطية لم يكن لرئيسها حرس خاص يتولى حمايته والدفاع عنه وقت الملمات .

وهكذا سقطت المدينة في قبضة الثائرين على عثمان واصبح رئيس الدولة الجديد علي بن أبي طالب بحكم الاسير في أيديهم يوضح ذلك جوابه لمن طالبه باقامة الحد على قتلة عثمان: « كيف أصنع بقوم يملكونا ولا نملكهم ، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم اعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ماشاؤوا .فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون»(٧٦)

وربما كان هذا الوضع هو السبب الذي كان يقف وراء تردد علي في قبول منصب الخلافة حينما عرض عليه بعد مقتل عثمان على الرغم من تطلعه اليه منذ زمن بعيد : ذلك أن قبول منصب الخلافة في هذا الظرف يعني قبول مطالب الثائرين على عثمان والسير وفق توجيههم. وقد كان هذا هيناً لو تم لهم خلع عثمان بشكل سلمي ، أما وقد تلطخت أيديهم بدمائه فان مجاراتهم والتعاون معهم في منتهى الخطورة . لذا فقد روى الطبري أن المدينة بقيت «خمسة أيام وأميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه . يأتي المصريون علياً فيختبيء منهم ويلوذ بحيطان المدينة فإذا لقوه باعدهم وتبرأ منهم ومن مقالتهم مرة بعد مرة »(٧٧)« فلما كان يوم الخميس على رأس خمسة أيام من مقتل عثمان (رض) جمعوا أهل المدينة » . فلما اجتمعوا لهم قال لهم أهل مصر أنتم أهل الشورى ،وأنتم تعقدون الامامة ، وأمركم عابر على الأمة فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تبع فقال الجمهور علي بن أبي طالب ،نحن به راضون (٧٨) فقالوا: «دونكم ياأهل المدينة فقد أجلناكم يومين فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيراً فغشي الناس علياً فقالوا نبايعك فقد ترى مانزل بالاسلام وما أبتلينا به من ذوي القربى فقال علي : دعوني والتمسوا غيري فانا مستقبلون أمراً له وجوه وله الوان لا تقوم له القلوب

---

(٧٥) البلاذري .ج٥ص٦١

(٧٦) الطبري ،تاريخ ،ج٦ص ٣٠٨٠

(٧٧) المصدر نفسه ،ج٦ ص ٣٠٧٣

(٧٨) المصدر نفسه ، ج٦ ص ٣٠٧٥

ولا تثبت عليه العقول. فقالوا ننشدك الله الا ترى مانرى الا ترى الفتنة، الا تخاف الله، فقال قد اجبتكم لما ارى واعلموا ان اجبتكم ركبت بكم ما اعلم وان تركتموني فانما انا كأحدكم الا اني أسمعكم واطوعكم لمن وليتموه أمركم ، ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد » (٧٩) حيث تمت البيعة لعلي في المسجد من قبل الثائرين على عثمان واهل المدينة وكبار المهاجرين وعلى رأسهم طلحة والزبير اللذين بايعا مكرهين (٨٠) .

وفي رواية اخرى ان اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم اتوا علياً في منزله فقالوا: هذا الرجل قد قتل ولا بد للناس من امام ولا نجد اليوم احداً احق بهذا الامر منك، لا اقدم سابقة ولا اقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال لاتفعلوا فاني اكون وزيراً خيراً من ان اكون أميراً فقالوا لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك. قال ففي المسجد فان بيعتي لاتكون خفياً ولا تكون الا عن رضى المسلمين » (٨١) . وقد اوحت هذه الرواية — على مايبدو — لبعض الباحثين ان البيعة لعلي كانت في نفس اليوم الذي قتل فيه عثمان (٨٢) .

ولكن هذا الاستنتاج الضمني تدفعه الرواية الصريحة التي اوردها الطبري والتي تؤكد ان البيعة لعلي لم تتم الا بعد بضعة ايام من مقتل عثمان كما قدمنا .

الصراع بين علي ومعاوية : —

وهكذا انتخب علي بن ابي طالب لمنصب الخلافة ، وتمت له البيعة ، ولكن البيعة لعلي لم تأت في ظروف هادئة مواتية ، بل جاءت في ظروف عصيبة للغاية ، حيث ان مقتل عثمان — كما يقرر فلهاوزن — يعتبر « حادثا حاسما لايكاد يدانيه في خطره حادث آخر في التاريخ الاسلامي ، فمنذ ذلك الحين صار للسيف القول الفصل في أمر رئاسة الحكومة الثيوقراطية ، وفتح باب الفتنة ولم ينسد بعد ذلك ابداً انسداداً تاماً » (٨٣).

اما القوى التي جاءت بعلي لمنصب الخلافة وقدمت له البيعة ، فقد كان على راسها الثائرون على عثمان من عرب الامصار الذين لم يكن لهم دور يذكر في المبايعة للخلفاء الذين سبقوا علياً . أمـا قريش التي لعبت الدور الأكبر في اختيار الخلفـاء السابقين

---

(٧٩) المصدر نفسه ،ج٦ ص ٣٠٧٦

(٨٠) المصدر نفسه ،ج٦ص ٣٠٧٦ ،راجع أيضاً البلاذري ج٥ ص ٧٠

(٨١) المصدر نفسه ،ج٦ ص ٣٠٦٦ — ٣٠٦٧

(٨٢) فلهاوزن ،تاريخ الدولة العربية ،ص٥١

(٨٣) فلهاوزن ،تاريخ الدولة العربية ص ٥٠

فقد تلاشى دورها في هذه الظروف ، لأن الثورة على عثمان كانت بمثابة الثورة على بني أمية وحلفائهم مما جعلهم يهربون من المدينة أو يتوارون عن المسرح الى حين (٨٤) . كما ان بعض كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار — حتى الناقدين منهم لعثمان — شعروا بألم وانقباض شديدين نتيجة للظروف التي قتل فيها عثمان . ولان الخليفة الجديد « تلقى البيعة وسلطان الخلافة من ايد غير بريئة من الاثم » (٨٥) فاندفعوا لمعارضة علي وكان على رأسهم طلحة والزبير وعائشة ام المؤمنين (٨٦) .

لقد واجه علي حال توليه الخلافة موقفا في غاية الحراجة ، فقد كان كبار الصحابة وعلى رأسهم طلحة والزبير يطالبون باقامة الحد على قتله عثمان وكان هو يجيبهم : « كيف اصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم » (٨٧) . وكان قتله عثمان يطالبون بعزل عمال عثمان على الامصار لأنهم أحد أسباب النقمة على عثمان ... وكان واضحاً انه لو استجاب لهذا المطلب في هذه الظروف فستشتد المعارضة له وسيتهم بانه مع قتله عثمان .

ويبدو ان علياً لم يجد بداً من الاستجابة لمطالب الثائرين على عثمان ، فقام بعزل ولاة عثمان ، وعلى رأسهم معاوية بن ابي سفيان (٨٨) . وبذلك تبلورت المعارضة لعلي في جبهتين : الجبهة الاولى يتزعمها طلحة والزبير وعائشة مع انصارهم من أهل البصرة والجبهة الثانية يقودها معاوية بن ابي سفيان من بلاد الشام .

وهكذا قدر لعلي ان يمضي فترة خلافته التي امتدت حوالي خمس سنوات في حرب أهلية ، بدأت في معركة الجمل واستمرت بعد ذلك مع معاوية الذي رفض مبايعة علي وأخذ يتهمه بالاشتراك في قتل عثمان ، مما حمل علي على تجريد حملة لمحاربته . وقد تقابل الجيشان في موقعة صفين التي كادت ان تكون لصالح علي لولا ان لجأ معاوية الى رفع المصاحف مطالباً بالتحكيم استناداً الى كتاب الله (٨٩) .

لقد احدث هذا الطلب انقساماً في جيش علي ، مما حمله على قبول التحكيم من اجل المحافظة على وحدة جنده (٩٠). غير ان ذلك لم يحقق له ما أراد ، بل زاد في انقسامهم

(٨٤) الطبري ، تاريخ ج٦ . ص ٣٠٧٥
(٨٥) فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ٥١
(٨٦) الطبري ، تاريخ ج٦ ص ٣٠٧٠
(٨٧) المصدر نفسه ، ج٦ ص ٣٠٨٠
(٨٨) المصدر نفسه ، ج٦ ص ٣٠٨٢ — ٣٠٨٦
(٨٩) المصدر نفسه ، ج٦ . ص ٣٣٢٩
(٩٠) المصدر نفسه ، ج٦. ص ٣٣٢٩ — ٣٣٣٦

حتى وصل الأمر ببعضهم إلى الخروج عليه متهمين إياه بالكفر لأنه شك في حقه بالخلافة، فسعوا بالخوارج، وراحوا يشنون الحرب ضد علي ومعاوية معاً » (٩١) .

أما نتيجة التحكيم . فقد جاءت في غير صالح علي . إذ اتفق أبو موسى الأشعري — ممثل علي — مع عمرو بن العاص — ممثل معاوية — على خلع علي من منصب الخلافة والرجوع إلى الأمة لاختيار من ترضاه خليفة لها مما قوى مركز معاوية وجعل اتباعه يبايعونه بالخلافة تباعاً وبعد فترة من الوقت . أما علي فقد رفض نتيجة التحكيم (٩٢) ، واستمر في صراعه ضد معاوية الذي أخذت قوته بالتزايد يوماً بعد آخر حتى سقط شهيداً بيد أحد الخوارج (٩٣) ، فاستقرت السلطة بيد معاوية ، وأصبح بذلك خليفة المسلمين من غير منازع (٩٤) ، وهكذا استقرت الخلافة بيد معاوية عن طريق القوة والتغلب ، ثم اكتسبت شرعيتها من خلال البيعة التي جاءت لاقرار الأمر الواقع .

معاوية والعهد لابنه يزيد :

لقد عمل معاوية على مبايعة ابنه يزيد بالخلافة من بعده . وحمل الناس على تقديم البيعة له طوعاً أو كرهاً مستغلاً نصيحة واليه على الكوفة المغيرة بن شعبة الذي قال له : «يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان . وفي يزيد منك خلف . فاعقد له فان حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك . ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة » (٩٥) .

والحقيقة أن العمل على تداول السلطة بصورة هادئة ، بعيداً عن دواعي الفتنة والاختلاف ، هدف جيد ومشروع . ولكن . ألم يكن أمام معاوية من طريق لتحقيقه سوى العهد لابنه يزيد ؟

لقد كان هناك أكثر من طريق . كما كان هنالك أكثر من مرشح لو كان هدف معاوية مجرد اختيار الخليفة الصالح في حياته . في جو من الهدوء والاستقرار .

وقد عبر عن ذلك عبدالله بن الزبير حينما طالبه معاوية بالبيعة لأبنه يزيد فقال : «نغيرك بن ثلاث خصال ، قال : أعرضهن . قال : تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر . قال معاوية : ما صنعوا ؟ قال : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(٩١) المصدر نفسه ، ج٦ . ص ٣٣٥٠ — ٣٣٥٣ . ٣٣٦٢ — ٣٣٩٠

(٩١) المصدر نفسه ، ج٦ . ص ٣٣٥٨ — ٣٣٦٠

(٩٣) المصدر نفسه ، ج٦ . ص ٣٤٥٧

(٩٤) المصدر نفسه ، ج٦ . ص ٣٤٥٦

(٩٥) ابن الاثير . عزالدين الكامل في التاريخ . بيروت ١٩٦٥ . ج٣ ص ٥٠٤

ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبابكر. قال: ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف قالوا: صدقت فاصنع كما صنع أبوبكر فانه عهد إلى رجل من قاصية قريش، ليس من بني أبيه فاستخلفه، وان شئت فاصنع كما صنع عمر، جعل الامر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه (٩٦).

غير أن معاوية لم يقبل هذا العرض وأصر على طلب البيعة لابنه يزيد. مما يدل على أن الأسباب التي قدمها معاوية كانت مجرد تبريرات للوصول إلى هدفه.

ولكن ماالذي كان يدعوه لذلك؟... ربما كان معاوية واقعاً تحت تأثير أعوانه وأقربائه من بني أمية الذين ربطوا مصيرهم ومصالحهم به، فكانوا حريصين جداً على ضمان استمرار سياسته في الحكم بعد وفاته. وقد كان خير ضمان الاستمرار هذه السياسة هو انتقال الخلافة الى إبنه يزيد من بعده. كما ساعد على اقتناع معاوية بأسلوب الوراثة في الحكم عيشه في بلاد الشام التي كانت خاضعة لحكم البيزنطيين مما جعله يتأثر بنظام حكمهم واسلوبهم في الادارة. لذا فقد خاطب عبدالرحمن بن أبي بكر مروان بن الحكم حينما طالبه بمبايعة يزيد بقوله: « ما الخيار اردتما لامة محمد، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية. كلما مات هرقل قام هرقل » (٩٧).

وقد أشار فلهوزن إلى أن الضوضاء التي قامت حول بيعة معاوية لولده يزيد « لم تكن في حقيقة الحال مطابقة لسببها المزعوم، وذلك أن حق الأمير في أن يعين من يخلفه بعد وفاته كان مقرراً. وحتى إذا كان الابن ليس هو صاحب الحق في ذلك فانه لم يكن بحال من الاحوال محروماً منه. فاما الذي يظهر انه لم يكن موجوداً فهو البيعة مقدماً قبل وفاة الخليفة. ولكن المسلمين كانوا إذ ذاك في أوائل تاريخهم ولم يكن ثم سنة مقررة في هذا الباب على الاطلاق. ولم يكن هناك أي نظام مقرر لوراثة الخلافة »(٩٨).

يبدو أن تفسير فلهوزن لهذه المسألة لايخلو من تناقض واضطراب فكيف يشير في أول الفقرة إلى أن — حق الأمير في أن يعين من يخلفه بعد وفاته كان مقرراً — ثم يعود في نهايتها ليؤكد — أن البيعة مقدماً قبل وفاة الخليفة لم تكن موجودة — وما الفرق بين الحالتين يا ترى؟ ثم ما رأى الكاتب في عهد أبي بكر لعمر قبل وفاته ألم تكن بيعة ؟ ...

إن الذي يظهر من استقراء الحوادث أن سبب المعارضة التي جوبهت بها خطوة معاوية في البيعة لابنه، ان ابنه يزيد لم يكن أهلاً لهذا المنصب في نظر معظم سكان الاقاليم الاسلامية ..

(٩٦) ابن الاثير، عز الدين، الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٥ ج ٣ ص ٥١٠.

(٩٧) المصدر نفسه، ج ٣ ص ٥٠٦

(٩٨) فلهوزن، تاريخ الدولة العربية، ص ١٣٤

بالاضافة الى وجود بعض المنافسين الذين يشار اليهم بالبنان باعتبارهم أهلا لمنصب الخلافة كالحسين بن علي وعبد الله بن الزبير .

وعلى الرغم من كل ماتقدم ، فقد « استمرت هذه السابقة الوراثية في الخلافة على هذا الشكل حتى الازمنة الاخيرة من العصر العباسي ، اذ كان يعلن الخليفة الحاكم خلفا له اكبر أولاده أو أعزهم لديه اذا أثرت العاطفة والتعصب في اختياره أو يعين خيرة أقاربه ، فيقدم قسم الولاء للامير في العاصمة لولي العهد ومن ثم في مدن الدولة الاخرى . ولكننا لانجد مثالا على تعاقب الاب والابن المباشر الا نادراً ، ففي حالة الاربع والعشرين خليفة الأولين في الدولة العباسية اعقب ستة منهم فقط اولادهم وعندما تدهورت قوة الخلافة العباسية الى العدم اصبح عاماً ان يعقب الابن أباه » (٩٩) .

ان صمود قاعدة الوراثة في تداول السلطة — والتي كانت في حقيقتها تجمع بين الوراثة والتعيين — امام النقد واستمرارها في مجال التطبيق يدل على أنها كانت اكثر ملائمة لروح ذلك العصر ذي النزعة الملكية الاستبدادية ، واكثر استجابة لظروف الامبراطورية العربية الاسلامية ذات الاقاليم الشاسعة والمواصلات الصعبة من غيرها من اساليب تداول السلطة .

غير ان ماتقدم لا ينفي ان قاعدة الانتخاب في تداول السلطة كانت اكثر مطابقة للتقاليد العربية والمثل الاسلامية من قاعدة الوراثة والتعيين ، حيث كان العرب في الجاهلية ينتخبون شيخ قبيلتهم من بين الرجال الاصلاء الذين تقدمهم سجاياهم الحميدة كالشجاعة والكرم والحكمة لشغل هذا المنصب كما ان الرسول حين وفاته قد ترك امر اختيار من يخلفه في منصب الرئاسة للمسلمين ، فقام سكان المدينة من المهاجرين والانصار بانتخاب ابي بكر لهذا المنصب واستمر اسلوب الانتخاب معمولا به بصورة او باخرى طوال عهد الخلفاء الراشدين ، غير ان ممارسة الحق في الانتخاب لم تتسع في المجتمع العربي لتشمل كافة افراد الامة البالغين كما هو معترف به في ظل الانظمة الديمقراطية الحديثة ، بل انه كان مقصوراً على الرجال دون النساء وعلى الاحرار دون العبيد عند عرب الجاهلية واستمر كذلك في الاسلام مع ملاحظة ان الذين مارسوا هذا الحق في عهد الخلفاء الراشدين من الرجال هم سكان المدينة ومن يصادف وجودهم فيها أثناء الانتخاب من سكان بقية الاقاليم الاسلامية ، وذلك راجع في تقديرنا الى صعوبة وسائل الاتصال في ذلك العصر .

---

(٩٩) آرنولد ، الخلافة ص٩

وعلى الرغم من تحول الخلافة الى منصب يتداول عن طريق الوراثة او التعيين منذ عهد بني أمية ، الا انه احتفظ ببعض المظاهر الانتخابية الشكلية كالبيعة وما يتصل بها من اجراءات . اما الفقهاء فقد استمر جمهورهم على تأكيد الطابع الانتخابي للخلافة بصورة عامة ، ومناقشة الشروط الواجب توفرها في الخليفة ، وفي اهل العقد والحل، كما سنوضح ذلك في بحث لاحق .